اصلاح اشكال الحكم

في العالم العربي

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

حاجتنا الى التجانس

ليس من مصلحة بلادنا في شيء ان نطلب لها الحكم الديموقراطي قبل ان نحصل على رجحى اجتماعية نطعن بها الجماهير العربية فنجعلها متجانسة ونزيل من بينها هذه الفروق التي تجعل وحدة الرأي فيها بعيدة التحقيق ، ومن العبث ان نسوس البلاد بالتعاون والاشتراك والسواد منا يعتقد مثلاً ان الادارة الكاملة هي ادارة القرون الوسطى . والمخرج الوحيد من البلاء الذي نعانيه هو اتحاد كلمة النخبة المنتخبة منا ولم شعثها لتتمكن من جرّ الدهماء الى الامام بالقوة ، وحسبنا مثالاً نحتذي به الاقليات الفاشستية والنازية والكمالية في بادىء أمرها فهي هي التي انقذت ايطاليا والمانيا وتركيا من الانحلال ومن سلطة المجالس النيابية الجوفاء واضاعتها أثمن الاوقات في القال والقيل على غير جدوى

ولعلّ حكومة الاقليات او حكومة القاهرين ستمثل دور الانتقال من حكومة الغوغاء الى الحكومة الشعبية التي ينشئ بها منذ اجيال روّاد الحكم النيابي الصحيح ، لان الديموقراطية الحقة المشروحة في كتب السياسة والتي قلما احسنت استخدامها الامم هي في التحليل النهائي الحكم الذي ترتضيه العقول الراجحة وتقبله التربية العالية . فتكون حكومة القاهرين والحالة هذه هي الرحى الاجتماعية المنشودة التي تجعل اجتماع كلمة الشعب على الشؤون الطارئة اقرب منالاً ووحدة الرأي اقرب الى التحقيق — حتى بين المذاهب الدينية المتشاكسة — وتصرف جهود الناس على انواعها في سبيل السعادة العامة والهناءة المشتركة . ثم ان الحرية الفردية التي تلازم الادارة الديموقراطية عادةً لا تقتضي في الشعوب الراقية الخبط والخلط والجموح والاشتغال بالسفاسف كما ذكرنا سابقاً بل تعني التعاون يقدمه الفرد بحسب ملكاته ومزاياه . وقد تمثل لنا ذلك على اتمه في الادوار العصيبة التي اجازتها انكلترا في الازمة العالمية الحاضرة ، فان حزب العمال لم يظاهر كفاءة ولا انسجاماً ولا كان له من الرعماء من قبض على الشؤون بيدٍ من حديد تحضر الثقة التي تمتع بها ونزل عن دست الحكم من غير جلبة ولا ضوضاء ولا قعقعة . ذلك لان الامة الانكليزية اولت المحافظين تأييداً لم يسبق له مثيل حتى كاد يكون اجماعاً فتولوا الحكم والفوا الوزارة القومية الحاضرة على اهون سبيل

ولا مراء ان الوضع النيابي في البلدان التي استعدت له هو اداة تمكن اصحابها من تكوين الزعامة الفردية وهي زعامة لا تسير الشعوب عادة الاَّ وراءها، وعلى قوتها تتوقف صلابة البناء السياسي جميعاً ، بيد أن هذه الاداة تسمها تجعل الزعماء — على ما يجب ان يتحلوا به من حرية واستقلال في الرأي — خاضعين للرأي العام ثم ان الفرد من الدهماء عند ما تحجز حريته او يتخيل المظلمة نازلة به يشعر بانحراف الحكومة وضرورة اصلاحها ؛ ولكنه يعرف في نفسه انه عاجز عن وصف العلاج الشافي ، فاذا لم يكن عائشاً في كنف حكومة نيابية ثار في وجه الاوضاع السياسية للخلاص منها او سقط في شرك الدجالين الاخصائيين في استجلاب العوام او اصبح العوبة بيد أرباب المذاهب السياسية المستحدثة التي تدعي ان لديها الطلسم الشافي من جميع الاوصاب . وبخلاف ذلك لو كانت الحكومة نيابية ديموقراطية فان لمثل هذا الفرد من حق الانتخاب ما يمكنه من استنابة الرجل الاقوى على ايجاد المخرج الذي ينقذه من الضيق . لا جرم ان الحكومة الديموقراطية الصحيحة بالشروط التي اشترطناها هي اقرب الحكومات الى الحيلولة دون الثورة ذلك لانها تجعل الاهلين اجمالاً على اتصال بالسياسة التي تسير عليها الدولة وتجعل لهم علاوة على ذلك شيئاً من السيطرة على هذه السياسة . فلا يجد الشعب نفسه في حالة من الغبن تحمله على الالتجاء الى العنف واستخدام الشدة ، ويكفي لاسقاط حكومة المستر مكدونالد مثلاً أن يقترع مجلس النواب عليها ، ولكن اسقاط موسوليني او هتلر او مصطفى كمال يحتاج الى ثورة ، ذلك ان ايطاليا والمانيا وتركيا ليس فيها مجلس نواب بالمعنى الديموقراطي الاصلي بل اعضاء يرقصون على النغمة التي يدندن بها الدكتاتور . والديموقراطية شأن آخر خطير وهو ما تفسحه من المجال لارباب المذاهب السياسية والكفاآت الادارية فقد دلَّ الاحصاء على ان الاكفاء يجدون الفرص السانحة لاظهار مواهبهم في الحكومات النيابية اكثر مما يجدونها في الحكومات الاستبدادية ، ذلك لان طموح الدكتاتور مثل جمال الحسناء يأبى ان يرى له منافساً

على ان الباب اذا فتح للاكفاء في الديموقراطيات فهو ويا للأسف لا يوصد في وجه الدجالين ايضاً لما في مقدورهم من استجلاب طبقة من النواب لا تختلف عن العامة كثيراً الاَّ في جلوسها على مقاعد النيابة . يستجلبونهم بمزف الانغام المبتذلة التي يطربون لها عادة ، ولا نعرف وضعاً اجتماعيًّا اسيء استعماله في الشرق العربي لغايات سياسية حزبية مثل الدين وحجاب المرأة ، وتكاد تكون كل رجعي قائمة على التظاهر بما يدّعيه خصوم الانتقال من وجوب الدفاع عن العقائد والاعراض ومحاربة البدع التي يزعمون وجودها في الاوضاع المستحدثة . والعامة واشباه العامة من الناس اذا لم ترسخ في اذهانها القواعد الاولى التي يجب ان تتمشى عليها سياسة الدولة ، ولم تتعلم ان تفرق بين الدعايات الباطلة والصيحات الصادقة سارت على غير هدى وانقادت لكل ناعق ، وقد تفعل فيها الترهات فعل السحر في الاقوام الابتدائية

هذا بعض ما للديموقراطية وما عليها ذكرناه بشيء من التفصيل للشأن الكبير الذي له في التطور السياسي العالمي الحاضر ، وقد حاول الفاتحون بعد الحرب العظمى ان يحصروا قضية البلدان العربية المسلوخة عن الدولة العثمانية في تزويد الاهلين بالمجالس النيابية ظناً منهم ان « الديموقراطية » التي خاض الرئيس (ويلسن) غمار الحرب لانقاذها من ايدي (الهلس) العسكريين الاتوقراطيين كلة تسحرنا وتبهر عقولنا ، ولكن لو كان لنا اختيار ولم نرغم على وضعنا السياسي الحاضر بقوة الحديد والنار و « هيام » المنتدبين بنا — لفضلنا الف مرة مجلساً نيابياً مؤلفاً من رقاصين يدندن لهم الزعيم الوطني القاهر على هذه المجالس النيابية الكريمة . ومع كل اعتراضنا على مثل هذه المجالس النيابية في البلدان العربية فنحن نعترف ان نتائج الانتخاب لم تكن لترضي المندوب السامي في كثير من الاحيان ، ولو زادت حرية هذا الانتخاب قليلاً لكان اول قرار يصدره المجلس النيابي الخلاص من المحتلين بقضهم وقضيضهم ، ولا يكون مثل هذا القرار مستغرباً لان دفع الموت الاكيد مقدم في البحث على سائر الاعتبارات ، ومهما بلغت الدهماء في شعورنا من الغفلة عن الواجب والاسترسال في سخافات القرون الوسطى فهي شاعرة على التحقيق بالهلاك الذي يحيق بها من الاحتلال والاستعمار

وكيف كان الأمر فيجوز للبلدان العربية التي لم تتجهز بعد بوسائل الانقاذ التي توسلت بها الامم الحية منذ ثورة اميركا في القرن الثامن عشر الى ثورة بولونيا في القرن العشرين ان تشتغل مرقتاً بالوضع النيابي و « بالمناورات » البرلمانية الى ان تحين ساعة العمل ، وما من شيء يقرب هذه الساعة الخطيرة في تاريخ كل قطر من هذه الاقطار مثل تضافر النخبة المنتخبة من ابنائه لخدمة المصلحة العامة ، ثم على هذه النخبة المنتخبة ان تفهم الافراد ان قيمة الواحد منهم تقاس بنشاطه واشتراكه في تحمل التبعة وان من وقف موقفاً سلبياً من الامة وعاش كلاً على جهودها هو طفيلي اجتماعي بالمعنى الحيوي ، وقد انقضى الزمان الذي كان يجوز للفرد فيه ان يتمدح على عزلته بل دلنا الاستقصاء العلمي على ان العزلة هذه عرض جوهري من الاعراض الدالة على بعض الامراض العصبية الوبيلة . وقد اجاد الاشتراكيون بقولهم « صوت واحد للعامل الواحد » ليستثنوا من هذا الحظ تلك الحشب المسندة التي لاقيمة لها في القسطاس البشري لانها ليس لها عمل ايجابي في المجتمع

ثم ان المصالح الاجنبية التي طرأت على البلدان العربية مزقتها وقسمتها على نفسها لتسهيل ابتلاعها ولم تحرم هذه المصالح من نفر من اهل البلاد ايدوها اما لما يضمنون لانفسهم من المنافع الخاصة بهذا التمزيق واما لما في ذهنيتهم من ترهات قروسطية بالية ورثوها ممن استغلوا العقيدة الدينية البريئة ، فعلى العاملين ان يسترشدوا بما زرعه (هيجل) في الامة الالمانية من الطموح الذي سهل بناء الامبراطورية الجرمانية وذلك بما بثه من تلك الروح السامية التي ذهبت بالفوارق العرضية بين اجزائها . وليس بالمتعذر على الباحث ان يبين المنافع التي تجنيها الاقطار العربية من تعاونها وتوحيد اتجاهها لبلوغ غاياتها المنشودة

ولا يفوتنا هنا ان نعتذر عن تأييدنا سياسية اليد القاهرة الحكيمة لادارة البلدان العربية المستقلة ، فهذا الاستبداد الذي نوافق عليه انما هو لاجل الحرية التي ننشدها ، ونحن نفادي بحرية بعض الافراد الممتازين الغالية مؤقتاً في سلامة مجموع الامة من التناحر والفوضى ، ولو كان مجتمعنا في المنزلة السامية التي يتمناها كل مخلص امين ما فضلنا على الديمقراطية شكلاً آخر من اشكال الحكم لادارته ، وقد جاهدنا في سبيل الدستور على العهد العثماني جهاداً يذكره ابناء وطننا ولكن الحيبة التي اصابت البلاد العثمانية من نقص تربيتها السياسية وعدم استعدادها ابدت هذه النتيجة التي وصلنا اليها . ونحن نعترف هنا والامس آخذ منا مأخذه ان الحكم القاهر يقتضي الشدة ووضع الحواجز والقيود على الافراد ، وغني عن البيان ان الادارة المملوءة بالنواهي والمحرمات وسائر انواع « التابو » او « اللامساس » هي ادارة وضعت في الاصل لعصر غير عصرنا ، وتعني في التحليل النهائي ان المجتمع الذي تطبق عليه مؤلف من افراد لا يعرفون ما لهم وما عليهم ، وان الطبيعة الحيوانية فيهم متغلبة على سائر الطبائع فيجب ان يساقوا بالقوة ويقرعوا بالعصا ، وهذا لعمري اثر من آثار العقائد التي تحسب الانسان متمرداً قد افسدته وهدمت اخلاقه الخطيئة الاولى التي ارتكبها في الجنة فهو والحالة هذه شرير بالطبع . ولو جاز للوالد ان يحسب اهل بيته اشراراً بالفطرة وان تربيتهم يجب ان تبتدىء على هذا الاساس النظري لرجعنا القهقرى الى حالة الاسرة في الاعصر الغابرة

اننا نعترف بكل ذلك ولكن ما العمل وحكم القاهرين هذا هو السبيل الوحيد للنجاة من التفتت والتفسخ والانشقاق ؟ لقد ايدنا الحكم الاستبدادي العادل للقطر العربي المستقل لاننا اهتممنا بانقاذ مجموع الشعب اكثر مما اهتممنا بانقاذ الفرد ، وقد يتبادر الى الذهن ان هنالك تناقضاً لازماً بين مصلحة الفرد ومصلحة المجموع ، حتى ان بعض ارباب المذاهب الفردية افرطوا في اظهار هذا التناقض ، ولكن التتبعات الاجتماعية دلّت اهل البحث على ان الفرد في الحياة المجتمعة المؤلفة تأليفاً صحيحاً يحقق فرديته تحقيقاً تامّاً وذلك بما يكتشف فيها من الفرص الملائمة التي تظهر ميزاته ، يعني ان الفرد الذي يعيش في عزلة لا يجد من المجال لبيان ما امتاز به ومن المشجعات على ملكاته الخاصة شيئاً يعادل الفرد الذي يعيش في المجتمع ، وكلما كانت الفرص سانحة ومتنوّعة في الحياة المشتركة وكان الطلب حثيثاً على بعض المزايا ظهرت هذه المزايا في شخص من يسمى « النابغة » او في شخص « رجل الساعة » ظهور البضائع المرغوب فيها في الاسواق التجارية . فلا عجب ان تأتينا الازمات والانقلابات وسائر انواع الشدائد بالنبغاء الجدد بل بأشباه النبغاء ومن هم دونهم وذلك للاسواق الجديدة التي فتحت في طلبهم . وقديماً عرف علماء التاريخ ان الثورات تخلق «رجال الساعة » وفي جميع ذلك ما يدلنا على وجوب فتح المجال للافراد في الدولة كي يظهر النبوغ المستتر فيهم . وهذا ما جعل التعليم الزاميّاً في البلدان الراقية وفتح الابواب على مصاريعها للطلاب ليكون للفرد الواحد من الحظ ما يتيح له الفرص التي تظهر مزاياه الكامنة . قال (كونكلين) انه

ليرتعش الواحد منا ان يفكر كيف تم (اسحق نيوتن) بشق النفس من ان يكون فلاحاً بسيطاً او (فاراداي) من ان يكون مجلداً للكتب مجهولا او (باستور) من ان يكون دبّاغاً قرويًّا . ويجب ان يكون في التاريخ الكثيرون من امثالهم في النبوغ ممن فاتتهم الفرص السريعة التي سنحت لهؤلاء . ومن عادتنا ان نظن ان العلماء لم يظهروا الاّ في فترات متباعدة ولكننا مع ذلك نعلم ان الازمات الكبرى تكشف عن العظماء دائماً . افلا يعني هذا الكلام ان الرجال جاهزون وانما يحتاجون في الظهور على المسرح الى هذا المنبه الجديد ؟ والميزات التي ورثها من الآباء والجدود كافية لمعظمنا بل هي اكثر مما نتصور ، وكذلك القابليات الكامنة في صدورنا هي عظيمة ولكنها قلما نجد لها ميداناً تتحلّى فيه[1] » . والعمل المهم الذي تقوم به الحياة الاجتماعية المشتركة لاجل تقوية الفردية هو انها تبحث عن الميزات الشخصية المطلوبة في الاحوال الطارئة على المجتمع كما تبحث الاسواق التجارية عن البضائع التي يكثر عليها طلب التجار ، فالرواج يكون معنويًّا كما يكون ماديًّا ، وقد تتنوّع تلك الميزات المرغوب فيها تنوع هذه البضائع ، لذلك يجد النبوغ مهما كان نادراً وغريباً هواةً « يشترونهُ » ، والرواج يخلق البضاعة المطلوبة خلقاً ويأتي بها ولو من الصين

لا جرم ان اتساع المجتمع اليوم وتفرعه بالقياس الى ما كان عليهِ في الماضي والارتقاء الذي تمّ له في البناء الذي يقوم عليهِ والعلائق الدقيقة التي يتماسك بها كل ذلك لا يزيد فقط في طلب النبغاء بل يلحف كثيراً في تنويع النبوغ الذي يتجلى فيهم

وحسبنا من هذه التوطئة التي قدمناها ان نلفت الانظار الى خطأ الذين يحاربون الفكرة العربية العامة ويتطرفون في « اقليميتهم » ، ومن ادعى دواعي الاسف ان يكون اكبر عدد منهم — على قلته — في القطر المصري وهو القطر الذي يجني اطيب الثمرات من الفكرة العربية ماديًّا وادبيًّا ، وبديهي اننا كلنا وسعنا مجتمعنا العربي ونوعنا اقاليمه فتحنا اسواقاً جديدة للنبغاء منا او لمن كانت فيهم قابلية النبوغ كامنة ، وشتان بين من يخدم قطراً فيهِ ثلاثة ملايين او اربعة ملايين من البشر كسورية او العراق وبين من يخدم عالماً عربيًّا يمتد من المحيط الى المحيط ، وكما ان القرية الصغيرة لا تنمي الخبراء من اهل الاختصاص لانهم لا يجدون فيها الزبائن الكافين « لشراء » فنونهم كذلك القطر الصغير يميت النبوغ لانهُ عاجز عن تحمل نبوغهم وتغذيته بالمال والاقبال . ولا هُمّون على الاقاليم القطبية الجليدية ان تربي الطاووس من ان تنمي (بريدة) او (عنيزة) او (ينبع) المهندس او الكيموي

حكومة الزهر

لقد ايدنا حكومة القاهرين بالمعنى السياسي الاجتماعي الحديث لتسير بالناس الى الامام بالقوة وتحول دون تفتتهم وتطمع في نفوسهم احترام الدولة لكننا لا نرى شرًّا من اقتصار اعمال الحكومة على زجر الرعية فقط ، ولا يسعنا في الختام ان ننهي هذا المقال من غير ان نستنكر الخطط

(1) Major Social Problems, P. 145

العقيمة البالية التي تسير عليها بعض الحكومات في العالم العربي سواء كانت حكومات مستقلة او رائفة ، فهي من اساسها قائمة على نظرية الزجر فقط بحيث لا يتورع بعضها من ان يتدخل في شؤون الافراد الخاصة حتى ان زبانيتها ليكسرون صفائح المقول على رؤوس مستمعيه في زاوية الدار التي يسكنونها، وفي نظرنا ان اعظم تحول طرأ على الحكومات الحديثة هو خروجها من هذا الموقف السلبي — موقف الزجر والحظر و « التابو » و « اللامسام » — الى الموقف الايجابي ، موقف تشجيع الافراد والاخذ بناصرهم ، ويتجلى ذلك حتى في اشد الحكومات الحديثة استعباداً كالفاشستية والنازية . والاكثار من الزجر والتثبيط بدلاً من الاكثار من الارشاد والتشجيع عمل يستند الى فكرة سخيفة خواها ان تغيير طبائع الافراد محال فواجب الحكومة والحالة هذه ان تحول دون شر الرعية فقط واما السعي لتحسينها فهو عقيم ولا محل له في منهاجها ! ونحن وان اعترفنا بان المدنية لم تغير بعد تغييراً جوهرياً في طبيعة السواد من الناس في العالم المتمدن ولاسيما في ساعة الغضب والانفعال الا اننا من اشد انصار التربية الايجابية ، ولا شيء نسخر منه مثل الاعتراف بالعجز عن الاصلاح . ولئن اتجبنا (ابو العلاء المعري) كثيراً برقة شعوره في التبرم من الخلق وتشاؤمه من فساد فطرتهم فقد اعجبنا الاستاذ (توماس هكسلي) اكثر بتفاؤله بالاصلاح وامله بالتغيير حين قال « يمكن عمل الشيء الكثير لتغيير طبيعة الانسان ، فالادراك الذي حوّل الكلب وهو اخو الذئب الى حارس القطعان الامين يجب ان يكون قادراً على عمل شيء لاخضاع الغرائز الوحشية في الانسان المتمدن »(١)

ومن المؤسف المحض ان نكون في شؤوننا الشرعية والاخلاقية والاجتماعية لا نزال متمسكين بالعتيق في حين ترانا في صناعتنا وعلومنا العملية كما قال الاستاذ (بايندر) على احدث طراز فاذا ما دخلت مصنعاً من المصانع الراقية او مختبراً من المخابر الفنية راعك ما فيه من المستحدثات لكنك لا تجد اصحابه يختلفون في عقائدهم اختلافاً جلياً عن زملائهم في القرون الوسطى ، وكم رأينا عاملاً متفنناً او خبيراً من اهل الاختصاص لا تختلف نظريته في الخليقة وتاريخها عما خلفهُ البابليون في سفر التكوين ، وسخافات « العظماء » اشهر من ان تذكر . ومن المهم جداً ان يكون للعالم العربي حكوماته الوطنية تعمل بوحي من علمها لان الارتقاء الذي يحمل عليه الشعب بتطوره الداخلي هو الارتقاء الثابت الذي لا يكون عرضة للتقلب السريع . وليت المنتدبين في الشرق وغيرهم من المستعمرين الذين يتظاهرون بالافراط في خدمة المصلحة الشرقية فيتداخلون في كل شيء ينصتون الى قول الاستاذ بايندر حين قال « لقد دلّ التاريخ على ان الانسان لا يمكن ان يدار من الخارج كائنة ما كانت القوة التي تحاول ذلك . بل هو يدير نفسه بيده وذلك حين يقوم امام عينه مثل اعلى للاحتذاء فيجده مناسباً له ومتصلاً به اتصالاً صحيحاً . وتجذبه الى اخوانه من بني الانسان حاجته الى التكامل بهم ، وتحمله هذه الحاجة على العمل بطريقة تربي فيه ذاتية يحتفظ بها سليمة غير منقوصة »(٢)

(١) Major Social Problems, p. 156. (٢) Evolution & Ethis, p. 32